المحاضرة الثّامنة مدخل إلى الفنون النّثريّة

تمهيد:

ينقسم الأدب العربي الحديث إلى الشعر والنثر، أما الأول فقد اطلعنا عليه*، أما النثر فقد اشتمل على مجموعة من الفنون بعضها مرجعيته تراثية وأخرى غربية، وسنحاول في هذه المحاضرة الكشف عن أبرز المفاصل الأساسية التي حركت حركة الفنون النثرية الحديثة وعليه، ما مفهوم النثر والفنون النثرية لغة واصطلاحا؟ ما التحديد الزمني لبداية ونهاية هذه الفنون النثرية الحديثة؟ ماهي عوامل نهضتها؟ وما هي أبرز أقسامها؟

أوّلا. مفاهيم أوّليّة:

تحدد البداية الزمنية للفنون النثرية الحديثة بحملة نابليون بونابرت على مصر عام 1798م، وامتدت بها الأزمنة إلى نهاية النصف الأول من القرن العشرين تحديدا قبيل نهاية الحرب العالمية الثانية 1945م، وتعليل هذا الخيار الزمني كون حركة الفنون النثرية عرفت المغاير ثيميا وفنيا على صعيد إنتاجيتها الأدبية بدءا من هذا التاريخ، ويسمى النتاج الأدبي لهذه المرحلة بمصطلح الفنون النثرية الحديثة. وإن جئنا إلى تحديد مفهوم الفنون النثرية فإن البداية ستكون بتحديد معنى النثر لغة، فقد قدم له ابن منظور دلالات محتلفة نقرأ منها "نَثْرُك الشيء بيدك ترمي به متفرقا مثل نَثْرِ الجَوْزِ.. وكذلك نَثْرُ الحَبِّ إذا بُذِرَ..، وقد نَثَره ويَنْثِرُه نَثْرا ونِثَارا ونَثَّرَه فانْتَثَر وتَنَاثَر، ونَثَرَ كَلاَمَا: أَكْثَرَهُ"[1] فالجوز والحَبُّ يتسم بالبعثرة مما يجعلنا نقول بافتقاده للوثاق الذي يربط الجوز بعضه ببعض، ويُبْقي على حباته قريبة بعضها من بعضها إلى حد صفة الترابط، وكذلك حال الكلام فهو مرسل بسبب افتقاده الروي والوزن لشد وثاق ذاك المرسل. أما النثر اصطلاحا فهو"الكلام الفني غير المنظوم الذي يقابل الكلام المنظوم وهو الشعر"[2]. إن النثر الفني الذي هو كلام خاصيته أنه مرسل غير مقيد بالوزن والقافية قُولِب ضمن أشكال عديدة عرفتها العرب منذ القديم ولهذا السبب هي اليوم عندنا قوالب تراثية محددة، ومجموع تلك القوالب النثرية الفنية يطلق عليها مندور سمية الفنون النثرية[3] وقد ضبط بعضا منها في قوله: "وبالجملة انحصرت فنون النثر في التراث العربي التقليدي في نطاق محدود وأنواع قليلة تتلخص في الخطابة والأمثلة السائرة والتوقيعات والمقامات"[4].

ثانيا– ماقبليّات الفنون النّثريّة الحديثة:

1-أسباب ضعف الفنون النّثريّة في عصر الانحطاط:

ظهر آل عثمان بادئ الأمر كقوة ساعدت المماليك في صد خطر البرتغاليين ولما تعاظمت قوتهم قرروا القضاء على المماليك، فزحفوا صوب حلب بتاريخ 24 فبراير 1516م وأجهزوا على قوة المماليك في موقعة مرج دابق، ثم زحفوا على مصر واحتلوها سنة 1517م، ومن جرائر العثمانيين على الوطن العربي هو ضعف الفنون النثرية وذلك بسبب نقل بواعث التطور الأدبي من مصر والعالم العربي قاطبة إلى الأستانة حتى سمى عبد الله سرور هذه العملية بالإغارة، ومنها إغارة العثمانيين "على خزائن دور العلم وبدائع الآثار فنقلوا كثيرا منها إلى القسطنطينية واستولوا على أموال الأوقاف التي كانت محبوسة على معاهد العلم.. ونقلوا طائفة كبيرة من العلماء والأدباء.. إلى بلادهم فكسدت سوق العلم والأدب[5]. ومن الأسباب إعلان التركية لغة رسمية في كل مناطق حكم العثمانيين واستخدمت في الدواوين والكتابة بدل العربية، وخطر تلك الهيمنة يكمن في التأثير على المؤلفين والعملية التأليفية في آن واحد، فَسُدَّت أبواب الحكام في وجه الأدباء، مما أدى إلى انقطاع أملهم في العثمانيين وبذلك "انقطعت أسباب هؤلاء الكتاب وخمدت أذهانهم وتقصفت أقلامهم حتى لم يعودوا يجدون في أنفسهم قدرة على التعبير وتعثروا في الركاكة التي ما بعدها ركاكة وأخذوا يسترونها بالتلصص الأدبي"[6] . وآخر الأسباب تسييس الأزهر فقد حوله العثمانيون من مركز إشعاع علمي إلى مركز إشعاع للجمود والعقم، فحدد العثمانيون العلوم التي تلقن فيه للطلبة وفي شرطها الذي لا يتعارض مع حكمهم، وبقي الأزهر على هذه الحال إلى غاية مجيء الإمام جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده ومحاولاتهما إدخال الإصلاحات على الأزهر الشريف، وباجتماع هذه الأسباب يكون من الطبيعي إصابة الفنون النثرية بالانحطاط.

2- خصائص الفنون النّثريّة في عصر الانحطاط:

اتسمت نتاجات الفنون النثرية لعصر الانحطاط بالاجترار لمجموع الفنون القديمة في عصور ازدهارها ثيميا وفنيا، فقد كانت "هذه.. طاقة العصر إذ لم يعد هناك مجال للتجديد والابتكار فالقوم يعيشون على التقليد واجترار أعمال السابقين فإن هم تركوا هذا الاجترار والتقليد لم نكد نجد لهم شيئا قيما يمكن أن نعنى به"[7]. كما انطبعت خطابات الفنون النثرية بالصنعة والتكلف حتى غَيَّب عصر الانحطاط الطبع في الإنتاجية الإبداعية. ومن آثار تلك الصنعة والتكلف خواء النص من المعنى وانشغاله باللفظ وهذا حسب شهادة الركابي، ف"هكذا كانت صفة الأدب في هذه العصور لفظية في التعبير وفراغا في الفكرة"[8]. تمتد آثار التكلف والصنعة إلى الحرص "على الزينة اللفظية حتى بات

أديب ذلك العصر بهلوانا يحسن اقتناص ضروب البديع من جناس وطباق وتورية ونكتة متحجرة بقيود اللفظ"[9]، وأصبحت الدراسات العربية تتحدث عن انتشار السجعة على جسد النص النثري مع التكلف في إنتاجيته. وعلى مستوى اللغة "اقرأ في الآثار الكتابية أثناء العصر العثماني فستجد هذه الآثار أضعف وأقل من أن تقرن إلى أي عصر من العصور السّابقة.. تجد ضعف التأليف عامة، فالأسلوب واه، والأخطاء النحوية كثيرة والألفاظ التركية منتشرة"[10].وهكذا بلغت الفنون النثرية مبلغها من الانحطاط وما إن بدأ الوعي يدب في أوصال الأمة العربية حتى بات لزاما عليهم نشدان نهضة الفنون النثرية، فما هي عوامل هذه النهضة الحديثة؟

ثالثا. عوامل نهضة الفنون النّثريّة في العصر الحديث:

تكاثفت مجموعة من العوامل من أجل تفريش الأرضية لنهضة الفنون النثرية الحديثة، وقد تمثلت تلك العوامل في:

1-الحملة الفرنسيّة: قدم نابليون بونابرت مصر وكان ذلك في سنة 1798 م، و يعد مقدمه علامة فارقة في تاريخ الوطن العربي إذ كان ذلك سببا قويا في بث "أساليب المدنية الأوربية وأسبابها في الشرق وإشعال الثورة الصناعية"[11]، ومن الآليات التي تدعم بها المشروع البونابرتي نذكر المطبعة التي جلبها نابليون معه إلى مصر، كانت تطبع المنشورات "بحروف عربية ولا تينية ويونانية سميت المطبعة الأهلية أدارها المستشرق يوحنا يوسف مرسال"[12]، ولقد استخدمت هذه المطبعة في طبع "جريدتين فرنسيتين إحداهما La Décade Egyptienne العُشارِي* المصري.. والأخرى Le Courrier D' Egypte (بريد مصر)، كما أصدروا جريدة عربية اسمها (التنبيه) كانوا يطبعون فيها الحوادث اليومية والأوامر الرسمية فكانت أول جريدة عربية ظهرت في العالم العربي وقد صدرت سنة 1799م، وتولى إنشاءها أديب عصره اسماعيل بن سعد الخشَّاب"[13]. كما أسس نابليون مسرحا للتمثيل ومعه مدرستين لتعليم الفرنسيين المولودين في مصر ومُجمَّعاعلميا ومكتبة كان كل طالب من الأزهر يمكنه الحضور إليها والاستفادة منها بطلب ما يريد قراءته من كتب، إلا أن عامل الحملة الفرنسية بآلياته كان له تأثير في ميلاد الوعي العربي بصورة الانحطاط الذي بلغه الوطن العربي، مما أفضى إلى مقارنة الوضع العربي بالغربي وبالتالي نشدان صورة للتطور العربي على كافة الأصعدة وعلى رأسها الفنون النثرية الحديثة.

2-إصلاحات محمّد علي: بعد أن استتب الأمن السياسي لحمد علي وضع برنامجا إصلاحيا غلبت عليه صفة العلمية؛ لأنه أراد دولة علمية متطورة مثلما هي عليه دول الغرب، ومن آليات محمد علي

البعثات العلمية التي كان أعضاؤها يُختارون من طلبة الأزهر أوفدهم محمد علي إلى باريس "ليتخصصوا في شتى العلوم والفنون من حقوق وعلوم سياسية وهندسية حربية وطب وزراعة وتاريخ طبيعي وميكانيك وكيمياء وطباعة وحفر وغير ذلك مما استلزمته النهضة الحديثة"[14]. سُجِّلت أول بعثة طلابية سنة 1826م، ثم توالت البعثات المصرية ومن أشهرها البعثة الطبية الكبرى في سنة 1832. ومن الآليات المطبعة والصحف إذ أنشأ محمد علي مطبعة بولاق، كما "أصدر في سنة 1828م . 1244هـ جريدة الوقائع المصرية باللغة التركية، ثم بالتركية والعربية وكانت تنشر مراسيم الحكومة والحوادث التي يجب أن يطلع عليها الجمهور.. وتداولها جماعة من الكتاب المعروفين كالشيخ حسن العطار ورفاعة الطهطاوي وأحمد فارس الشدياق والشيخ محمد عبده وغيرهم "[15]، والأهم أنها أصبحت تصدر باللغة العربية فقط. كما شجع محمد علي على الترجمة التي تدعمت بمدرسة الألسن بريادة الطهطاوي، فتجند طلبة البعثات العلمية لذلك "حتى إنهم ترجموا على هذا النهج كثيرا من الكتب التي قدمت إلى المطابع وأصبحت من الآثار الباقية "[16]. فضلا عن بناء المدارس ومنها مدرسة الطب في جهة أبي زعبل. وعلى الرغم من الغاية العلمية لإصلاحات محمد علي إلا أن تلك الآليات قد انزاحت عن مضانها العلمية لتكون مفتاحا من مفاتيح التأصيل لنهضة الفنون النثرية الحديثة، ف"منذ أرسلت البعوث إلى أوربا فإن هذه البعوث لما رجعت أخذت تفكر في إدخال بعض ما تعرفت عليه من الآداب الأوربية "[17]، أما إذا جئنا إلى آلية مطبعة بولاق فمن إثمارها أنها "أخذت تخرج كتبا لأعلام العباسيين الأول من مثل كتاب كليلة ودمنة، وليس فيها سجع ولا بديع"[18].

3- الإرساليّات التّبشيريّة: ظهرت الإرساليات التبشيرية في وقت مبكر بالمشرق العربي ف"ملامح النهضة الأوربية الحديثة.. بدأت تصل إلى الشرق منذ القرن السادس عشر للميلاد-العاشر للهجرة عن طريق الإرساليات.. حيث تعرف الشرق إلى مدارس الغرب وخصوصا مدرسة روما المارونية التي أنشئت في العام 1584م-992 هـ"[19]، تعددت هذه الإرساليات التبشيرية كالكبوشية، والبروتستانتية، والكاثوليكية. ومن آلياتها بناء المدارس والجامعات[20] كجامعة بيروت الأمريكية، وكذا إنشاء المطابع وأقدمها مطبعة "قِزْحَيًّا، ومطبعة مار يوحنا الصايغ..إلخ. كانت آليات الإرساليات ذات طابع ديني فانتظرت إلى غاية القرن التاسع عشر فخرجت إلى المسار الأدبي وذلك بظهور طبقة واسعة من المثقفين فشجعوا الأدب و نهضوا به كإدخال المسرح إلى لبنان على يدي مارون النقاش، والملحمة من خلال جهود سليم البستاني، كما أسسوا أول مجلة أدبية مستقلة نهض بها يعقوب صروف، فضلا عن تأسيس ندوات أدبية تربي فيها الناشئة أدبيا ومن ثمارها جرجي زيدان الذي كان

يحضر تلك النوادي وهو فتى صغير فتشبع بروح الأدب فلما اشتد عوده غدا رائدا للرواية التاريخية فأسهم بجهوده في نهضة الفنون النثرية الحديثة.

4- المستشرقون: قدم المستشرقون الوطن العربي من دول مختلفة نذكر منها انجلترا، فرنسا، ألمانيا، بولندا، النمسا، ايطاليا، هولندا..إلخ. ومن بين المستشرقين نذكر دورانبورغ الذي نشر كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، وديوان النابغة الذبياني، أيضا فلوجل ناشر التعريفات للجرجاني، وكشف الظنون لحاجي خليفة، والفهرس لابن النديم. على العموم كان للمستشرقين إسهام جلي في التفريش لنهضة الفنون النثرية الحديثة وذلك من خلال مساعيهم المؤسسة على الكشف عن كنوز الكتب العربية والعمل على تحقيقها، والسعي لطبعها ونشرها لتكون في متناول جمهور القراء.

رابعا- الفنون النّثريّة الحديثة:

أثمرت عوامل النهضة العربية الحديثة على مستوى الفنون النثرية فعرفت هذه الأخيرة نشاطا واسعا على مستوى إنتاجيتها، وكذا تفعيلها مع الوضع العربي المأزوم بمختلف أحداثه، فضلا عن إخضاع الفنون لخدمة متطلبات العصر، فشهدت تطورا بلغ حد التطوير جنسا، وأسلوبا، وثيمة، وفنيا، ومن أبرز تلك الفنون النثرية الحديثة نذكر: الخطبة، الرسائل، المناظرة، أدب الرحلة، الخاطرة، القصة..، ويضيف بعض الدارسين فنون نثرية أخرى من باب التنويع فيها فمنها "السيرة الذاتية المتخفية في قص جانبي (زينب لمحمد حسين هيكل) إلى السيرة الذاتية الروائية التي تحكي حياة كاتبها بأسلوب روائي (الأيام لطه حسين وسارة للعقاد وابراهيم الكاتب للمازني وعودة الروح لتوفيق الحكيم)"[21] ..، وبتفحصنا الفنون النثرية العربية الحديثة وحسب المادة المتوفرة بين أيدينا وجدناها على أنواع كثيرة، فارتأينا تقسيمها إلى مجموعات وهي:

1- الفنون النّثريّة المهمّشة: اشتملت على التوقيعات والوصايا والأمثال،.. من أهم خاصياتها أنها نماذج تراثية إلا أنه لم يعد لها صيت على مستوى الإنتاجية الحديثة؛ لأن أدباء هذا العصر لم يعودوا يلتفتون إليها ويبدعوا على منوالها فاكتفوا باستهلاك المنتوج التراثي من هذه الفنون.

2- الفنون النّثريّة الجديدة المجهضة: ونقصد بهذا ما أطلق عليه سمية المسراوية، وأساسها الجمع بين أسلوب الرواية والمسرح معا في نموذج واحد، وأول من حاول في هذا القالب النثري الجديد المجهض توفيق الحكيم غير أن إنتاجيته باءت بالفشل. ونقصد بها أيضا المونولوج و"يكون في صورة حوار داخلي يتخذ على المسرح شكل الحديث المنفرد"[22]، عرف المنولوج بدايته في العصر

الحديث على يدي محمد تيمور إلا أن إنتاجيته في هذا الفن النثري لم يلق الرواج والانتشار فخمد ذكر المونولوج إلى غاية العصر المعاصر حيث أعيد تفعيله كواحد من أهم الفنون النثرية المعاصرة فعاد إلى الواجهة من جديد وبعديد نماذج.

3- الفنون النّثريّة الإحيائيّة: أسميناها بهذا الاسم لكونها فنونا نثرية ردت فيها الروح من جديد إحياء في العصر الحديث، مرجعيتها تراثية محضة، نجدها حافظت على أهم خاصياتها القديمة، في الوقت الذي شهدت فيه هذه الفنون النثرية الإحيائية شيئا من التخصيب وذلك من باب تسخيرها لخدمة الوطن، وتلبية حاجات العصر، ونذكر منها الخطبة، المقامة، الرسائل، أدب الرحلة،..إلخ.

4- الفنون النّثريّة المستنبة: جعلها عز الدين اسماعيل تحت مسمى الأنواع الأدبية[23]، مرجعيتها غربية لأنها أخذت عن الآخر واستنبتت في محاضن البيئة العربية، كما ربطت بحاجات العصر. ويرجع سبب تبني هذه الفنون النثرية المستنبة في العصر الحديث إلى البحث عن الجديد، وذلك حسب دفاع هيكل وإلا "بقي النثر كما بقي الشعر في جموده ولبقينا مقيدين بالصور القديمة نكتبها لا لنعبر بها عن شعور يمر بخواطرنا وعن فكرة تنضجها أذهاننا، ولكن لنجاري بها الجاحظ أو عبد الحميد أو بديع الزمان، ثم ليكون أقربنا إلى محاكاتهم أبرعنا في الكتابة؛ لأنه يكون صدى أولئك الذين تبوءوا بحق مكان الزعامة الكتابية في زمانهم، والفونوغراف الذي يحكي بدقة، وإن يك من غير شعور ما ألقي به إليه"[24]. وتشتمل على الرواية، والقصة، والمسرحية، والمقال، ومما نشير إليه أن بعضا من هذه الفنون النثرية المستنبتة وحتى الإحيائية سيتم بيانها وبشكل مفصل في المحاضرات الآتية.